تمهيد

قبل مئة وسبعين عاماً (في ثلاثينيات القرن التاسع عشر)، حين لم يتجاوز عمر الولايات المتحدة خمسين سنة، جال رجل فرنسي أريب اسمه الكسيس دو توكفيل في شتى أرجاء البلاد وألَّف كتاباً عنها بعنوان ـالديمقراطية في أمريكاـ. ثم أصبح الكتاب مجموعة كلاسيكية من الرؤى في «الشخصية الأمريكية» الثابتة. أعجب توكفيل بالأمة الفتية، لكن إعجابه لم يشمل كل شيء فيها. فالأمريكيون، كما عرف، شعب وطني غيور جداً. وبين عامي1775 ـ 1783م حارب أسلافهم أقوى إمبراطورية في العالم لنيل حريتهم. و«هم يقدرون تقديراً عالياً هذه الحرية إلى حد أنهم يعارضون بشدة أي انتقاد من أجنبي لأمتهم الجديدة»، كما لاحظ. وفي الحقيقة قال توكفيل: إنه «لا يوجد ما هو أشد تكديراً في التعامل مع الأمريكيين في الحياة العادية [هنا] من مشاعرهم الوطنية المتعصبة والمزعجة. ولسوف يوافق الأجنبي عن طيب خاطر على امتداح الكثير من الأشياء في بلدهم، لكنه يريد أن يسمح له بانتقاد شيء ما، وهذا محظور عليه تماماً».

كان توكفيل سيقدر الفروق التمييزية المرسومة في إحدى المواعظ التي ألقاها وليام سلون كوفين (الابن):

> هنالك ثلاثة أنواع من الوطنيين، نوعان سيئان وواحد جيد. السيئان يمثلهما الوطنيون الذين يحبون وطنهم حباً أعمى،

والمنتقدون المتحاملون المتحيزون ضده. والجيد يمثله الذين يتابعون شكوى المحب من وطنه، التي هي شكوى محبي الله من الدنيا.

كثيراً ما تنبثق المشاعر الوطنية المتعصبة من الضعف والإحساس بانعدام الأمان. ستيفن ديكاتور رفع نخباً شهيراً عام 1815م: «إلى بلادي! أرجو أن تكون على حق. وستظل بلادي حتى لو كانت على باطل!». ماذا لو قال ديكاتور: «حين تكون بلادي على صواب آمل أن تبقى كذلك؛ وحين تخطئ أتمنى أن تصحح خطأها». الحب الأعمى المتعصب للوطن دعوة إلى الاحتفاء بالفساد الأخلاقي، مثلما الانتقاد المتحامل والمتحيز دعوة إلى الأخلاقية المتشككة.

أي أمريكي يقرأ هذا الكتاب سوف يخضع نضج إحساسه الوطني إلى اختبار صارم، المسيحيون بيننا سوف يعرضون نضج إيمانهم ومبادئه الأخلاقية المرتبطة به إلى الاختبار. المزمور 15 : 4 يعرف «من يتقون الرب» بوصفهم أولئك المستعدين «للقسم حتى إن أضروا بأنفسهم». وعليهم الموافقة على الحقيقة المتعلقة بهم حتى إن كانت جارحة ومؤلمة. لقد قصد من هذا الكتاب، المطبوع بالإنكليزية بواسطة دار نشر أمريكية، أن يقرأه الأمريكيون. فهل يقرؤه الكثيرون منهم؟ آمل ذلك. لكنني في خضم دوامات السياسة الراهنة في أمريكا، لست متيقناً. فبعد الحادي عشر من سبتمبر مباشرة، اجتاحت البلاد من شاطئ الأطلسي إلى الهادي موجات جديدة من المشاعر الوطنية المتعصبة. رئيس الولايات المتحدة ردَّ على الحدث معرباً عن «دهشته» من أن يظهر أي أجنبي

«كراهية حادة» لأمريكا، «لأنني أعلم كم نحن أخيار وصالحون» كما قال. في تلك الأيام سأل بعض الأمريكيين: «لماذا يكرهوننا؟». والسؤال عنوان وموضوع الفصل الرابع من هذا الكتاب. أما بالنسبة للرئيس فقد كان السؤال مجرد بلاغة خطابية على ما يبدو. فقلة من جيراني الأمريكيين قضوا وقتا في البحث عن الجواب (مثل رئيسهم تماماً)، وهذا ما ذكرني ببيت من قصيدة للشاعر الإنكليزي سوينبيرن: «سأل بيلاطس*: «ما هي الحقيقة؟» لكنه لم ينتظر الجواب».

سوف تقدم هذه الصفحات للقارئ الأمريكي الصبور بعض الأسئلة. لكن قراءتها لن تكون تجربة ممتعة كثيراً، مثلما لن تكون قراءة قصص جرائم النازية ممتعة لأجيال الألمان بعد الحرب العالمية الثانية. وحتى اقتراح مثل هذه المقارنة سيثير بالطبع غضباً عارماً لدى بعض القراء، الذين أشعر أن من واجبي أن أذكرهم بما يلي:

> يأتي هذا الكتاب من عقل وقلب لاهوتي ألماني ورجل دين يعرف الكثير عن هذا البلد، بعد أن عاش داخل وقرب حدودنا مدة طويلة، لكنه يحب أمريكا إلى حد أن نقده لها ينبثق من حزنه على التهديد الذي يتعرض له أفضل ما في تاريخ أمريكا من أسوأ ما فيه.
>
> ومن مواطن ألماني يحب بلده أيضاً، لكن عانى في حياته حين بلغ سن الرشد بعد عام 1945م مواجهة داخلية متعاظمة مع أكثر أشكال السياسة شراً في تاريخ العالم ـ النازية. وجب

* الحاكم الروماني (26 - 36؟م) لما يعرف اليوم بالضفة الغربية في فلسطين. ترأس بيلاطس على المحكمة التي أدانت ونفذت العقوبة بالمسيح. (م)

obeikandl.com

على الألمان على مدى عدة أجيال مجابهة تحدي إنقاذ شيء من استمرارية الفخر والاعتزاز بتاريخهم في حين يعانون شعورا عميقا بالخجل والعار من أجزاء ذلك التاريخ.

جمع الفخر والعار يمثل كفاحاً صعباً لنا نحن البشر. وهو كفاح انخرط فيه المؤلف في ألمانية. ومثلما يقول في الفصل الثاني:«عبء الحزن والخوف الذي نحمله نحن الأوروبيون يأتي من كوننا عشنا تاريخ الأعداء المكروهين ودمرناهم مرات عديدة».

أخيراً، يأتي هذا الكتاب من لاهوتي مسيحي يعتمد على واقع الزمالة المسكونية (التي تشمل الكنائس كافة) للسمو على الحواجز القومية وفتح آذان المسيحيين في هذا البلد لسماع حكمة إخواننا في الدين في البلدان الأخرى ووجهة نظرهم بالعالم. إن قراءة هذه الصفحات بصبر وأناة تتطلب من المسيحي الأمريكي إجراء تمييز لاهوتي حاسم وواع بين الولاء للولايات المتحدة والولاء لله والمسيح*. أما إخفاق بعض المسيحيين بيننا في إجراء هذا التمييز بوضوح ـ الذي ترمز إليه الأعلام الأمريكية المرفوعة على العديد من الكنائس في شتى أنحاء البلاد ـ فهو إحدى المآسي المعاصرة للحياة الدينية في أمريكا. جيكو موللر ـ فاهرنهولتز يعبر عن حزنه لهذه المأساة، كحالي أنا.

لست الأمريكي الوحيد الذي يعاني هذا الحزن. وهذا الكتاب يترك في نفسي قلقا لا من الانقسامات الحالية بين أمتي والأمم الأخرى فقط، بل من الانقسامات الداخلية بين مختلف جماعات المواطنين والمتدينين في أمريكا حول أدوار بلادنا الراهنة في العالم. أتصور بعضا منا يلتقطون

* خطأ عقدي فالمفروض أن تكون العبارة (الولاء لله وإتباع المسيح).

obeikandl.com

الكتاب ثم يلقونه غاضبين، وغيرهم يقرؤونه حتى النهاية والدموع في مآقيهم. هنالك غضب كامن بين الصفحات، لكن آمل ألا يهمل أي قارئ الشعور بالحزن الذي ينبع منه حتى الغضب.

يدرك موللر ـ فاهرنهولتز حجم الخير والعون الذي قدمته بلادنا إلى العالم خلال سنوات حياته، خصوصا نجاحها المكلف في إنقاذ أوروبا من التوتاليتارية ومن تهديدات الكارثة الاقتصادية في الأربعينيات والخمسينيات. وعلى شاكلة العديد من الألمان الذين يتمتعون بالفطنة والتبصر، يعي فضائلنا الديمقراطية التي نتحمس لها. ويعتقد أنها تستحق أن تحاكيها وتتبناها الأمم الأخرى طوال القرنين الماضيين. لكنه يدرك أيضا استحالة أن تحتكر أمة الفضيلة السياسية أو الأخلاقية، وأن المبالغة في التوكيد على فضيلة الأمة تتعارض مع الحقيقة ومع النظرة المسيحية إلى جنسنا البشري. اعتاد رينوهولد نيبور القول: «هنالك زعم واحد يمكن إثباته تجريبيا في الدين المسيحي: «كلنا أخطأنا وأخفقنا في الارتقاء إلى مستوى عظمة الخالق المجيد». ومن الغريب أن العديد من أصوات ما يسمى باليمين الإنجيلي توافق على رسالة القديس بولس (الرومان 23:3)، بوصفها تنطبق علينا نحن الخطاة كأفراد، لكن لا باعتبارنا كياناً سياسياً يعرف باسم الولايات المتحدة. ولسوء الحظ، فإن العديد من الزعماء الذين يحظون بأعلى درجات الإجلال والتكريم في تاريخنا عملوا على تغذية ومفاقمة هذا التناقض: على سبيل المثال دعا توماس جيفرسون أمريكا «أمة بريئة في عالم شرير»؛ وقال جون ادامز إن بلادنا سوف «تحكم العالم وتعرّفه كمال الإنسان». لقد أدت مثل هذه الآراء إلى «الاستثنائية الأمريكية» التي واجهها توكفيل ـ الاعتقاد الطائش أن الأمريكيين قوم اختارهم الله أداة لإنقاذ العالم.

القراءة الصادقة والأمينة للكتاب المقدس والدراسة الجادة والدؤوبة للاهوتيين العظام كافيتان لتجنيب مسيحيي هذه الأمة الانخداع بمثل هذا الوهم. ففي الواقع الحقيقي، لن يقبل معظم باقي البشر حق الأمريكيين في تعريف العدالة، والديمقراطية، والاعتقاد الصائب، والتقوى والصلاح، لشعوب الأرض كلها. ولن يقبل الحكماء منهم زعم أي أمة، حتى أمريكا، بأنها فاضلة وصالحة وخيرة في كل تأثير تمارسه على الآخرين. يعلق موللر-فاهرنهولتز قائلاً في الفصل الخامس: «أصابت هجمات الحادي عشر من سبتمبر الأبرياء كأفراد، لكنها لم تصب أمة بريئة في استخدام القوة». في جميع حقب التاريخ، دحضت بكل سهولة مزاعم البراءة السياسية من قبل شعوب عانت دوماً سلطة حكومات امتزج الشر دوماً بأعمالها الصالحة والخيرة، بغض النظر عن حسن نياتها ونبل مقاصدها. والأخبار اليومية توضح هذه الحقيقة الأبدية حين تكون صادقة ونزيهة: الحكومات خطاءة في خدمة العدالة.

يقترب هذا المسيحي الألماني كثيراً من الرسالة المركزية لكتابه حين يتناول هذه الأمور الصعبة انطلاقاً من الجذور اللاهوتية العميقة:

> هنالك حاجة إلى طريقة لوصل الشعور بالعظمة والشعور بالذنب، والتقدم والفشل.. وهذا يبدو ممكناً. لكن ردي كمسيحي سيكون كالآتي: ليس ممكناً فقط، بل من المحتم علينا أن نعيش في نعمة الله ورحمته ومع ذلك نضل ونخطئ. رحمة الله واسعة بما يكفي لقبول خطيئة البشر ومنحهم فرصة لتغيير مسلكهم وتعديل أسلوبهم. هذا هو المعنى الحقيقي للتوبة والهداية.

لكن البشر وحكوماتهم يغيرون أحيانا أساليبهم نحو الأسوأ. وعندما تلقيت دعوة كريمة لكتابة تمهيد لهذا المؤلف، انتابني قلق لم أشعر به عند الكتابة طوال حياتي المهنية في مجال اللاهوت التي امتدت خمسين سنة. إذ وجب علي أن أتساءل: هل تراقب الحكومة الأمريكية أو ترصد هذه الصفحات في خضم حربها غير المسبوقة على الإرهاب؟ هل تخضع الانتقادات الموجهة لأمريكا في هذا الكتاب إلى شكل من أشكال الرقابة الحكومية؟ هل تصبح شجاعة شركة اردمانز للنشر ـ ووضعها الضريبي ـ هدفا للتحقيقات الحكومية قبل أن ترى هذه الصفحات النور؟ كم أشعر بالإحراج والخجل حين تخطر على بالي مثل هذه الأسئلة في أمريكا الحرة! من المؤكد أن المجموعة الكبيرة من أفضل الكتب اللاهوتية التي خرجت من غراند رابيدز قد وسمت هذه المطبعة بوصفها أهلاً للثقة التي وضعها التعديل الأول للدستور فينا كمواطنين حين منحنا الحق في حرية الصحافة والعبادة. ولن تراجع أي مؤسسة حكومية هذه المقدمة التمهيدية بعد أن أرسلها بالبريد.. هل هذا أكيد؟

دعوني أختتم بتوضيحين اثنين: الأول يفاقم شعور القلق الذي عبرت عنه آنفاً، والثاني يساعد في تهدئة حدته. وكلاهما ينبع من الروابط الجامعة بين الأمريكان والألمان.

في أيار/ مايو 2004، تجمع حوالي المئة من أعضاء كنيسة منهاتن لمشاهدة الفيلم الوثائقي الذي استكمله مارتن دوبلمير حديثا عن حياة ووفاة ديتريك بونهوفر. ثم تركزت مناقشة النظارة، التي أدارتها هيئة من العلماء والباحثين، على الأسئلة التالية: هل نعيش نحن الأمريكيين لحظة بونهوفر؟ هل نعيش في زمن تتجاوز فيه المشاعر الوطنية كنائسنا ومشاعرنا الدينية، ونكبت فيه حرية الإصغاء إلى الأصوات القادمة من بلدان العالم الأخرى باندفاعنا المتهور للمنافحة عن أنفسنا ضد أعدائنا

الأجانب؟ هل نعيش في عصر يجب علينا فيه مقاومة أعداء الديمقراطية داخل أمتنا، كحال بونهوفر؟ ظلت الحجج المؤيدة والمعارضة تتأرجح مدة ساعة. وقرب الختام، وقف رجل مسن طويل القامة ليقدم التعليق الختامي؛ فأنهى اللقاء وترك الحضور في حالة من الصمت والذهول:«أنا أحد الناجين من معسكر اوشفيتز. لا أظن أننا وصلنا إلى لحظة بونهوفر في أمريكا بعد. أعتقد أننا ما زلنا في عام 1932».

في تشرين الأول/ أكتوبر 2005، تقاسمت هذه القصة مع عدد من زعماء الكنيسة الإنجيلية في المانيا (زملاء مؤلف هذا الكتاب). وأبلغتهم قلقي من هشاشة الديمقراطية والحرية في خضم الأحداث الراهنة في وطني. وقلت لهم إنني أشاطرهم العديد من انتقاداتهم للأدوار الأمريكية في شؤون العالم الراهنة. لكن عند نهاية الحوار، التفتوا إلي وقالوا: «نثق بأن لدى الولايات المتحدة طريقة لتصحيح مسارها. فقد علمتنا بلادكم كيف يمكننا، في النظام الديمقراطي، تصحيح مسارنا وأخطائنا. نحن نعتقد أن بلادكم ما زالت تمتلك هذه القدرة».

أرجو ذلك. وأتمنى أن يمد هذا الكتاب يد العون والمساعدة.

دونالد شريفر
الرئيس الفخري
لكلية اللاهوت في نيويورك.

openkanoi.com

مقدمة

هذا الكتاب مجرد محاولة يقوم بها أجنبي لفهم التيارات الدينية الكامنة تحت سطح الثقافة العامة والحياة السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية، أو بكلمات أكثر إيجازا وتعبيرا، هو وجهة نظر أجنبي في دين أمريكا. وفي الحقيقة، كتبته على أمل أن يكون المنظور من الخارج قادرا على عرض مجسم أكثر وضوحا لتلك الأجزاء من الصورة التي لم يلاحظها الأمريكيون بسبب التصاقهم بها. لكنني أعرف أن بعض ملاحظاتي قد تكون مؤلمة للأمريكيين عند قراءتها ـ حتى حين تميل إلى الاتفاق معهم. فليس من المريح للنفس أبدا أن ينتقد الغرباء الوطن.

لماذا أحاول إذن؟ وما هي مؤهلاتي لذلك؟ قد يكون من المفيد البدء برواية قصة تعرفي بأمريكا.

سنة في ييل

بدأت القصة قبل أربعين سنة، في آب/ أغسطس 1965، حيث وطئت قدماي التراب الأمريكي أول مرة. كنت قد أنهيت لتوي دراسة اللاهوت في الجامعات الألمانية وأبحث عن جامعة للدراسات العليا في ميدان المشكلات الأخلاقية. لم أظن لحظة أن هذه الاهتمامات ستدفعني إلى السفر إلى

أمريكا. وهكذا تقدمت بطلب إلى مجلس الكنائس العالمي في جنيف للحصول على منحة. وفوجئت حين أرسلت إلى كلية اللاهوت في جامعة ييل (في نيوهافن بولاية كنيكتيكت).

لا أعرف حتى هذا اليوم من المسؤول عن ذلك. ففي الطلب الذي قدمته ذكرت اهتمامي بالدراسة في بعض الكليات الدينية التي هي أقل شهرة لأنني افترضت أن ييل للصفوة المختارة، التي لا أنتمي إليها أنا، ابن المزارع الألماني. ومع ذلك ذهبت إلى ييل ـ وأحببتها. من المؤكد أن كلية اللاهوت دفعتني إلى الجد والدأب والاجتهاد، لكن الدراسة كانت مرضية بسبب الفرص الدراسية المدهشة التي تمنحها الجامعة.

وهكذا، عرفت أفضل ما في أمريكا ـ عبر بعض الطرق على الأقل. فقد والفت جامعة ييل بين مناهج البحث والدراسة العميقة وبين الالتزام السياسي والاجتماعي. ومثلت القيم المؤسسة لمطلب أمريكا بأن تكون القوة الرائدة بين الديمقراطيات الغربية. أتذكر المناقشات الحامية التي جرت في «القاعة المشتركة» فيما يتعلق بحركة حقوق الإنسان التي أطلقها مارتن لوثر كينغ، إضافة إلى مشاعر القلق من تنامي التورط العسكري الأمريكي في فيتنام. وعلى شاكلة جامعات الساحل الشمالي الشرقي المنافسة، طالبت جامعة ييل بلعب دور في حياة الأمة ـ وفي حياة أمم العالم أيضا. شعرت بذلك في مراسم التخرج عام 1966، حين حصلت على شهادة «دبلوم في اللاهوت المقدس». فخلال المراسم، منحت شهادات الدكتوراه الفخرية إلى شخصيات رائدة وبارزة في مجالات الثقافة والعلوم والسياسة. وعبر عن هذا المطلب بيان رئيس جامعة ييل بعد بضع سنين: «كل من يهتم بالحضارة عليه أن يهتم بجامعة ييل». وجدت العبارة نوعا

من البلاغة الخطابية آنذاك؛ لكنها كانت تدل على شيء من الفهم الذاتي الواثق بالجامعة وإحساسها برسالتها.

ثمة جانب آخر للسنة التي قضيتها في ييل. فقد عملت مع عدد من الطلاب الأجانب الآخرين في مطبخ كلية اللاهوت ـ مقابل 1.25 دولار بالساعة، كما أذكر ـ وعرفت عن قرب الطلاب العاملين هناك. كان المطبخ بإدارة امرأة إيطالية، وجميع العاملين من السود. في نهاية المطاف، دعونا إلى كنائسهم. في حين مكنهم الشعور بالثقة والصداقة من التحدث عن الأمور التي تهمهم فعلا. وهكذا أخذت لمحة عن عالم داخل أمريكا كان مختلفا تمام الاختلاف عن ذلك الذي شاهدته من منظور أساتذة وطلاب جامعة ييل، عالم يعاني فيه الناس ذكريات مروعة وظلما فادحا.

مرارة المهاجرين

الجدول المتخم خلال السنة الأكاديمية في ييل منعني من السفر في أرجاء الولايات المتحدة كما كنت أرغب. لكنني وصلت حتى واشنطن دي. سي جنوبا، وشلالات نياغارا شمالا، وسنت لويس غربا. أعرف أن هذه المناطق لا تمثل أمريكا كلها؛ وحتى لو مثلتها فقد بقي شيء واحد يدهشني: تشابه الأبنية والمطاعم والمأكولات والمشروبات. فمطاعم كنتاكي فرايد تشيكن على سبيل المثال لها السطح الأحمر ذاته في كل مكان. والشيء نفسه ينطبق على مطاعم البيتزا وغيرها من المنشآت التجارية، حتى قبل أن تنتشر مطاعم مكدونالد وتصبح ثابتا راسخا في صناعة وجبات الطعام السريعة.

كنت أشاهد ذلك كله بالطبع من منظور أوروبي. ففي المانيا تتغير الأساليب المعمارية وأنواع الأطعمة وعادات الأكل والشرب تغيرا عميقا في الأماكن التي

تفصل بينها بضع مئات من الأميال. ولذلك تساءلت متعجبا لماذا يريد الأمريكيون الأنواع ذاتها من التجارب في شتى أنحاء بلادهم الشاسعة، على الرغم من التنوع الهائل في المشاهد والمناخ. هنالك أيضا قسوة وتهور في أمريكا سحرت بهما وقلقت منهما في آن. ولم ألاحظ إلا لاحقا الفوارق الكبيرة بين فيرمونت وجنوب فرجينيا مثلا، أو بين البلدات في مينيسوتا وكاليفورنيا.

ثمة أمر آخر ترك في نفسي أثرا عميقا. في سنت لويس، أقمت مع صديق حصل على منحة دراسية في كلية ايدن اللاهوتية. وتمثل جزء من واجباته المعينة في رعاية أبرشية صغيرة يتحدث أعضاؤها الألمانية وتبعد 30 ميلا إلى الغرب من نهر المسيسيبي.

في صبيحة الأحد، حين كان يستعد لإقامة القداس، تجولت في المقبرة المحيطة بالكنيسة الصغيرة. فلفتت انتباهي شاهدة قبر كتب عليها بالألمانية اسم امرأة وتاريخ ميلادها، واسم البلدة التي ولدت فيها في المانيا، ولهمشافن، القريبة من مسقط رأسي. لكن ما فاجأني هو السطر الأخير المحفور على الشاهدة: «توفيت في أرض أجنبية».

هنا ترقد رفات مهاجرة عاشت في أمريكا سنوات عديدة، ومع ذلك تكشف شاهدة قبرها عن أنها بقيت أرضا أجنبية بالنسبة لها. وعلى ما يبدو، شعرت بأنها غريبة عن أمريكا طوال هذه السنين. وتذكرت جذورها في ولهمشافن، ولم ترسخ جذورا جديدة في السهول الكبرى إلى الغرب من سنت لويس. استشعرت ألما جعل عيني تدمعان. وبدأت أحس ألم انقطاع الجذور الذي أصاب ملايين العائلات الأمريكية المهاجرة. ومن المؤكد أن معظمها كانت سعيدة حين تركت وراءها الظروف القمعية، أو الضغوط السياسية، أو الظلم الاجتماعي، أو الوضع المالي اليائس، أو الاضطهاد الديني. ومع ذلك،

عندما انقطعت جذورها عن أرض الوطن، فقدت بيوتها وأصدقاءها وأحبتها الذين ربما لن تلقاهم مرة أخرى أبدا. وحين كافحت بكل قوتها لتعيش في هذه الأرض الجديدة، ظلت تعاني جرحا خفيا لم تبرأ منه. ووجب عليها «نسيانه». لكن هل يفسر هذا الألم، الذي لم يعترف به في معظم الحالات، تجاهل الأمريكيين الواسع النطاق للماضي؟ هل هذا هو الشبح الذي رافق براغماتية أمريكا وانشغال مواطنيها بالمستقبل؟

التعرّف بالبراغماتية الأمريكية

بعد عشر سنوات (بين عامي 1974 ـ 1979)، عملت في مجلس الكنائس العالمي. وشمل العمل عدة رحلات ممتدة إلى مختلف المناطق في الولايات المتحدة، وتعرّفت بالعديد من اللاهوتيين والأمريكيين الذين يشغلون مناصب قيادية داخل الكنيسة. بدا آنذاك أن الاهتمامات التي شغلت العالم مارست تأثيرا قويا في الكنائس الأمريكية؛ التي كانت تمارس أيضا دورا فاعلا في الكنائس في مختلف أرجاء العالم.

ومع ذلك، فإن الذين التزموا الولاء لحركة توحيد الكنائس في تلك السنين لم يدركوا تماما أن قطاعات عريضة من البروتستانتية الأمريكية كانت بعيدة عن تأثيرنا. وعلى الرغم من اعتقادنا أننا نتصدى للاهتمامات المركزية في حياة الكنائس، إلا أن الذين كانوا يتشبثون بصمت بما يعدونه «أصول» الإيمان المسيحي، اعتبرونا من «أصحاب الميول اليسارية». لذلك فوجئنا حين تبين لنا خلال الحملة الرئاسية لرونالد ريغان، أن «الأغلبية الأخلاقية» تتمتع بقوة سياسية مرعبة. ومنذ ذلك الوقت ـ طوال خمسة وعشرين عاما ـ تمتع اليمين المسيحي بنفوذ هائل، في حين كان تأثير «التيار الغالب» من البروتستانتية يخسر ويتراجع على ما يبدو. ولم يعد

مقر مجلس الكنائس الوطني الشهير (في ريفرسايد درايف 475) ـ بل مركز الكنائس العالمي ـ كما كان أبدا.

وجد العديد من المراقبين خارج الولايات المتحدة، بغض النظر هل كانوا فاعلين وناشطين في حركة توحيد الكنائس أم لا، صعوبة في فهم ما الذي يمثله الإنجيليون اليمينيون الأقوياء. لا أعرف جماعة في أوروبا يمكن مقارنتها بالإنجيليين الذين يمارسون عباداتهم على التلفزيون، ويصل نفوذهم المؤثر إلى أعلى المراتب الهرمية في السلطة السياسية. ويستحيل تصور احتدام مجادلات حامية بين أتباع نظرية النشوء الارتقائي والمؤمنين بالخلق الإلهي. فأوروبا معلمنة كلية، أو بكلمات أخرى جاهلة دينيا. لذلك، لا يعرف معظم المراقبين في أوروبا كيف يمكن فهم اللغة الدينية التي تبدو طبيعية تماما على الطرف الآخر من الأطلسي، و«الكلام الإلهي» للزعماء السياسيين في الولايات المتحدة، وليست لديهم طريقة لتقويم وتقدير تأثيره في السياسة العالمية. وهذا أحد العوامل التي تفسر تنامي الجفاء بين الولايات المتحدة وأوروبا.

فيما يتعلق بي، هنالك نسخة جديدة من أمريكا بدأت تظهر، لتأخذ شكل تغير في الدور الذي سمح للدين بلعبه في السياسة. ويعد هذا الكتاب محاولة لفهم المخاطرة المتضمنة وما هو على المحك هنا.

الشعب المختفي الذي يسكن الذاكرة

خلال هذه الرحلات الممتدة عبر الولايات المتحدة، بدأت أعرف أسماء المدن والولايات، والأنهار والجبال، التي أخذت من الشعوب والقبائل المفقودة التي عاشت هناك: كنيكتيكت، ماساتشوستس، شيكاغو، منهاتن،

سسكواهانا، تشيسابيك، مسيسيبي، ميلووكي، اوكلاهوما. لقد لازمت هذه والعديد غيرها من الأسماء ذاكرتي وسكنت روحي لأنها تشير إلى أولئك السكان الأصليين الذين تعرضوا للخيانة والطرد والذبح ـ على أيدي المهاجرين من أوروبا غالبا، ومنهم العديد من الألمان. لكن معظم الأمريكيين الذين قابلتهم لم ينتبهوا على ما يبدو للصرخة الصامتة التي تحملها هذه الأسماء معها. ولم يعرفوا الجزء الذي سادته الإبادة الجماعية في تاريخهم. تساءلت ما هي كلفة «نسيان» الرسالة البكماء لهذه الأسماء العديدة؟ وكيف تتصل بواقع وقوة الإنكار.

من الواضح أنني تعودت هذه الأسئلة لأنني نشأت، كواحد من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية في المانيا، مع تبريح المناقشات حول «كيف» و«لماذا» تعرض الشعب اليهودي إلى ما يقرب من حافة الإبادة الجماعية في أوروبا من قبل الرايخ الثالث. أدرك بالطبع أن العديد من نظرائي الأمريكيين سوف تروعهم مقارنة محرقة الشعب اليهودي بحرب الإبادة التي شنت على سكان أمريكا الأصليين. وأنا لا اقترح وجود أي مجال للمقارنة ـ لسبب بسيط هو أن الجرائم الفظيعة التي ارتكبت ليس لها شبيه ولا نظير. ولكن ما أريده هو استقصاء كيف تستطيع الشعوب والأمم أن تتذكر (وتنسى بسهولة) تلك الحقب الوحشية والمتخمة بالذنب من ماضيها. ومثل ذلك أيضا اهتماما مقلقا بدأ يؤثر في تأملاتي وتفكيري بأمريكا، وسوف يلعب دورا في هذا الكتاب.

العيش في حديقة أمريكا الخلفية

بين عامي 1988 ــ 1993، درست في جامعتين في كوستاريكا. ودفعني العيش في هذا البلد الصغير في أمريكا الوسطى إلى تبني وجهة نظر

مختلفة اختلافا بينا فيما يتعلق بالولايات المتحدة. فقد عشت بين من يعدون أنفسهم «أمريكيين» بمعنى انتمائهم إلى قارة أمريكا. وتضمن هذا اعتقادهم أن مواطني الولايات المتحدة لا يملكون الحق في التحدث باسمهم كـ «أمريكيين» كأنما يتمتعون وحدهم بالأهمية على هذه القارة. لكن القضية بالطبع لا تتعلق باللغة الاصطلاحية. فما هو على المحك قضية أكثر عمقا وأشد ألما تمظهرت في العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بين البلدان اللاتينية الصغيرة والجار المتفوق في قوته الكاسحة في الشمال. من المؤكد أنهم مفتونون بأساليب عيش الأمريكيين إلى حد أننا يمكننا أن ندعو ميامي عاصمة أمريكا الوسطى والكاريبي الثانية. لكن حتى انسحارهم يفاقم على ما يبدو مشاعر الغضب التي يعبر عنها زملائي وطلابي على القوة العظمى الرابضة في الشمال.

هل الحسد هو الذي سبب هذا الغضب؟ لا أظن ذلك. ولكن أعتقد أنه التعامل مع هؤلاء بوصفهم بشرا من الدرجة الثانية. أو بأسلوب آخر، التجربة اليومية للتفاوت الصارخ بين الحريات الديمقراطية التي تعرض في واشنطن، من ناحية، والإمبريالية الواضحة التي تعبر عنها الحكومة الأمريكية ذاتها في دعم وتأييد الأنظمة القمعية في أمريكا الوسطى وسواها، من ناحية ثانية. كان مبدأ مونرو (1823)، الذي تطور خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر، بداية «مصفوفة السيطرة» بالنسبة لسكان أمريكا الوسطى، حيث خضع كل بلد يقع إلى الجنوب من نهر ريو غراند* إلى

* نهر ينبع من جنوب غرب ولاية كولورادو الأمريكية، ثم يتدفق عبر وسط ولاية نيو مكسيكو، ليجري بعدها على طول الحدود بين ولاية تكساس والمكسيك قبل أن يصب في خليج المكسيك. (م)

سيطرة الولايات المتحدة بدرجة ما. ولدى سكان المكسيك ونيكاراغوا وبنما وكوبا قصص خاصة يروونها؛ لكن حتى الحروب الأهلية الطويلة التي عصفت بالسلفادور وغواتيمالا لا يمكن فهم أسبابها بمعزل عن الدعم العسكري والمالي للولايات المتحدة. شعرت بثقل هذه الذكريات المؤلمة أنى ذهبت. لماذا؟ لأن تجارب العجز والإذلال ما زالت تسكن قلوب الناس وتكويها بنارها. أما العبارة الشائعة فهي: «نحن نسكن في الحديقة الخلفية للولايات المتحدة». بكلمات أخرى، يشعرون بأنهم تحت رحمة الأخ الكبير العملاق في الشمال، وهذا أوجد علاقة من الحب/ الكره لمستها في كل مكان من أمريكا الوسطى والجنوبية.

بعد أربعين سنة ـ تأملات في عام 2006

أين أنا الآن، بعد أكثر من أربعين سنة على وصولي إلى جامعة ييل؟ ما زلت مسحورا بأمريكا كحالي آنئذ. أحب قضاء وقتي مع الأمريكيين. والأصدقاء الذين عرفتهم تمتعوا بالذهن المنفتح، والسخاء والكرم، والتهذيب والدماثة والدعابة، والموثوقية. لكن كلما زادت معرفتي بالولايات المتحدة تناقصت ثقتي بما أعرف. في كتاب «رحلات مع تشارلي» (1961)، دعا جون شتاينبك وطنه «الوحش المفزع» لأنه كبير جدا ومتنوع جدا بحيث تعذر عليه فهمه. فإذا صح ذلك بالنسبة له، فكم يصح بالنسبة لي، أنا الأجنبي الغريب!

ومع ذلك، «نحن نعيش على الصور»، كما قال ذات مرة العالم المتخصص بعلم النفس والمؤرخ روبرت جاي ليفتون. والصور التي يشير إليها هي

النماذج (الباراديمات) والأمثلة التي ترشد حياتنا، شيء قريب لما يدعوه الألمان (weltanschauung) أو الطرائق التي ندرك عبرها العالم. وهذا يقتضي ضمنا أن إنسانيتنا تعتمد على استعدادنا للعمل وفقا لهذه الصور، وتقاسمها مع الآخرين، وتحديها بواسطة صور أخرى. من الواضح أن «أمريكا» جزء جوهري وأساسي من الصور التي أعيش وفقا لها. وهذا لا يشملني كفرد، ولا الكنيسة التي أنتسب إليها فقط، بل الشعب الذي أنتمي إليه. وفي الحقيقة فإن ما يحدث في الولايات المتحدة يعني العالم كله: ما تفعله القوة العظمى الوحيدة أو تمتنع عن فعله يؤثر فينا جميعا. ولهذا أعتقد أن للأجانب من أمثالي أسبابا وجيهة تدعونا لعرض آرائنا المتعلقة بالتطورات في الولايات المتحدة. ومع أن آرائي محدودة، إلا أنها قد تسهم في الحوار الضروري حول مستقبلنا المشترك.

لا أستطيع اختتام هذه المقدمة الاستهلالية دون أن أعبر عن عميق شكري لجون شيلتون لورنس. فلست مدينا له بالفضل لعمله الأكاديمي والمعرفي فقط، بل لأنه كرس أيضا ساعات طويلة من وقته لتحسين لغتي الإنكليزية، والتحقق من المراجع، وإجراء تصويبات حاسمة الأهمية. الشكر كل الشكر إلى دونالد شريفر، الذي كان رقيقا وكريما إلى حد كتابة التمهيد لهذا الكتاب. وعمله الفذ في مجال قوة المصالحة في حياة الأمم شجعني وساعدني على أداء عملي. أعبر عن شكري أيضا إلى شركة اردمانز للنشر، وإلى رايندر فان تيل على استخدام مهارته التحريرية لإدخال التحسينات على نص الكتاب.

ومثلما أشرت في البداية، أعرف مدى صعوبة قبول الملاحظات الانتقادية، خصوصا حين يكتبها أجنبي. لكنني آمل أن يكتشف القراء، حين يقرؤون ما بين السطور، الحب والاهتمام اللذين استهديت بهديهما عند الكتابة.

جيكو موللر ـ فاهرنهولتز

بريم المانيا.

obeikandl.com